بعـــد الموت

ماذا أريد أن يقال عنى

بقلم المرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعى

سأله محرر الدنيا منذ شهرين هذا السؤال فكتب اليه هذا المقال :

ما هى الـكلمات التى تقال عن الحي بعد موته إلا ترجمة أعماله فى كلمات ؟ فمن عرف حقيقة الحياة عرف أنه فيها ليهيء لنفسه ما يحسن أن يأخذه ، ويعد للناس ما يحسن أن يتركه ، فان الأعمال أشياء حقيقية لها صورها الموجودة وإن كانت لا ترى .

وبعد الموت يقول الناس أقوال ضمائرهم لا أقوال ألسنتهم ، إذ تنقطع مادة العداوة بذهاب من كان عدوا ، وتخلص معانى الصداقة بفقد الصديق ، ويرتفع الحسد بموت المحسود ، وتبطل المجاملة باختفاء من يجاملونه ، وتبقى الأعمال تنبه إلى قيمة عاملها ، ويفرغ المـكان فيدل على قدر من كان فيه ، وينتزع من الزمن ليل الميت ونهاره فيذهب اسمه عن شخصه ويبقى على أعماله .

ومن هنا كان الموت أصدق وأنم ما يعرف الناس بالناس ، وكانت الـكلمة بعده عن الميت خالصة مصفاة لا يشوبها كذب الدنيا على إنسانها ، ولا كذب الانسان على دنياه ، وهى الـكلمة التى لا تقال إلا فى النهاية ، ومن أجل ذلك تجيء وفيها نهاية ما تضمر النفس للنفس .

وماذا يقولون اليوم عن هذا الضعيف ؟ وماذا تكتب الصحف ؟

هذه كلمات من أقوالهم : حجة العرب ، مؤيد الدين ، حارس لغة القرآن ، صدر البيان العربى ، الأديب الأمام ، معجزة الأدب ، إلى آخر ما يطرد فى هذا النسق ، وينطوى فى هذه الجملة . فسيقال هذا كله ولـكن باللهفة لا بالاعجاب ، وللتاريخ لا للتقريظ ، ولمنفعة الأدب لا لمنفعة الأديب . ثم لا يكون كلاماً كالذى يقال على الأرض يتغير ويتبدل ، بل كلاماً ختم عليه بالخاتم الأبدى ، وكأنما مات قائله كما مات الذى قيل فيه .

أما أنا فماذا ترى روحى وهى فى الغمام وقد أصبح الشيء عندها لا يسمى شيئاً ؟ إنها سترى هذه الأقوال كلها فارغة من المعنى اللغوى الذى تدل عليه لا تفهم منها شيئاً إلا معنى واحداً هو حركة نفس القائل ، وخفقة ضميره . فشعور القلب التأثر هو وحده اللغة المفهومة بين الحى والميت

سترى روحى أن هؤلاء الناس جميعاً كالأشجار المنبعثة من التراب عالية فوقه وثابتة فيه ، وستبحث منهم لا عن الجذوع والأغصان والأوراق والظاهر والباطن ، بل عن شيء واحد هو هذه الثمرة السماوية المسماة القلب . وكل كلمة دعاء وكلمة ترحم وكلمة خير . ذلك هو ما تذوقه الروح من حلاوة هذه الثمرة

مصطفى صادق الرافعى

وأودعتك رمساً لتوقظ فى النفوس الهموم والشجن .
وأطفأت السراج المنير لينقلب ناراً تتسعر بين الضلوع .
ونزعتك من بيننا لتشعرنا الوحدة والفراغ .
فلنا الله ... لنا الله بعدك يا رافعى .

* * *

آدنى هذا الأمر فانشق له قلبى .
وتفطر فؤادى حين لفحنى أواره .
وفقدت الآسى وقد فزع عنى الصديق والخليل
فظللت وحدى أذرف الدمع السخين .
فواحر كبدى ... واحر كبدى مما أقاسى بعدك يا رافعى !

كامل محمود حبيب

من كلام الرافعى

قيل له رحمه الله : هل تكره الموت ؟ فقال لا بل أكره ذنوبى ، أما الموت فهو انكشاف العالم الأكبر ، نسأل الله حسن الخاتمة . وقيل له ما هى وصيتك إذا حضرتك الوفاة ؟ فقال : هى تكرار المبدأ الذى وضعته لأولادى :

النجاح لا ينفعنا بل ينفعنا الامتياز فى النجاح